المؤسسات الدينية والتعليمية بمعسكر ودورها

في كتابة التاريخ الوطني خلال العهد العثماني

أ.قرمان عبد القادر

جامعة معسكر

1- الجامع الكبير(مصطفى بن تهامي):

موقع الجامع:

يقع الجامع الكبير بقلب مدينة معسكر إلى الغرب من جامع المبايعة، على بضع مئات من الأمتار وبالضبط في ساحة مصطفى بن تهامي في وسط المدينة.

نبذة تاريخية عن الجامع:

أسس هذا الجامع من طرف الباي الحاج عثمان سنة 1160هـ الموافق لـ 1747م، وهي سنة توليه بايا على الإيالة الغربية، وهو ما تثبته اللوحة التأسيسية الموجودة في أعلى المدخل الرئيسي الأصلي، الذي ادمج مع الزيادة التي أدخلت على بيت الصلاة، وقد وُضعت خصيصا للتعريف به وبصاحبه.

يعد هذا الجامع النموذج الوحيد في معسكر، الذي لم تتسرب إليه يد الاستعمار الفرنسي بالطمس والتخريب والهدم والتحويل إلى كنيسة، وبقي على حالته الأصلية. إذ أنه أقدم جوامع معسكر وأهمها على الإطلاق في عصرها الحديث، فقد حظي برعاية خاصة من طرف الولاة والمسؤولين بباليك الغرب، فقد قام الباي محمد بن عثمان الكبير بتجديده وتوسيع مساحته، كما جلب إليه المياه وبنى خمسة أحواض للوضوء واستبدل منبره بمنبر أحسن من ذي قبل[1].

على ضوء ما سبق، يمكن القول بأنه شارك في مسيرة الحياة الدينية بهذه البلاد، وفي تنوير عقول الأجيال الجزائرية المسلمة على مر الزمان، وفي إثراء الحياة الفكرية والثقافية بشكل واسع وبطريقة جد ايجابية، وتصدى للتدريس فيه عدد كبير من العلماء الأجلاء، كان على رأسهم العلامة الحافظ أبو راس الناصر الراشدي[2].

---

[1]- ابن هطال أحمد التلمساني: **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص ص27-28، يُنظر كذلك:

- ابن سحنون أحمد الراشدي: **الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني**، تحقيق المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، د. م، د. ط، 1973، ص127

[2]- بوعزيز يحيى: **المساجد العتيقة في الغرب الجزائري**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص.208

كان المخطط الأصلي للجامع الكبير على شكل شبه مربَع، لكنه اتخذ الشكل المستطيل بعد الزيادة التي أُحدثت عليه في الفترة المعاصرة، فقد زاد مفتي معسكر الراحل بكاره بلهاشمي فيه جزءا كبيرا من الجهة الجنوبية الشرقية، أين كان المدخل الرئيسي والقبة التي كانت ضريحا للبايات الثلاث، وكذلك بالجهة الشمالية أين كانت المقصورة الأصلية للإمام. (انظر الشكل رقم 01 والصورة رقم01)

نبذة تاريخية عن مؤسسه: الباي الحاج عثمان ويقال له عصمان بن الحاج إبراهيم، تولى أولا بتلمسان لما كانت القاعدة بها، ثم تولى على جميع الإيالة الغربية أواسط محرم الحرام فاتح سنة ستين ومائة وألف الموافق لشهر جانفي من سنة1747م. توفي بمعسكر سنة1170هـ الموافق لـ 1756م، ودفن بها بعدما ملك تسعة أعوام[3].

2- جامع عين البيضاء:

موقعه: يقع هذا الجامع في حي عين البيضاء في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، حيث أنه شُيّد على أرض مائلة إلى الشرق، وذلك بعد أن قام الباي محمد بن عثمان الكبير بشراء أرضه من أربابها بأغلى ثمن وهم مستبشرون ببيعها حسب ما ذكره ابن سحنون الراشدي[4].

نبذة تاريخية عن الجامع: شُيِّد هذا الجامع في شهر ذو القعدة من سنة 1195هـ الموافق لـ1780م، وهذا حسب ما ورد في كتابة محفورة على مادة الجص، تزين واجهة محرابه.

يُعرف هذا الجامع بأربعة تسميات، فالتسمية الأولى هي "جامع العين البيضاء"، نسبة إلى العين الموجودة بالمنطقة، حيث أنّ لونها كان أبيضا، فاتخذ منه اسمها، أما التسمية الثانية فهي جامع "الباي محمد الكبير"، نسبة إلى مشيّده، والثالثة هي "جامع المبايعة"، لمبايعة زعماء منطقة غريس والحشم، الأمير عبد القادر أميرا للجهاد والمقاومة أوائل عام 1832م، أما الاسم الرابع فهو جامع "سيدي حسان"[5] نسبة إلى ولي صالح دفن بالقرب منه، واستمر في وظيفته عدة سنوات إلى أن تم نقض معاهدة تافنة من طرف الفرنسيين أواخر عام 1839م، الذين احتلوا فيها مدينة معسكر في العام الموالي، فتعرض الجامع لمحنة الغلق والإهانة والإذلال قرابة سبعين عاما كاملة، فاتخذه الفرنسيون مربطا لخيول جنود الصبايحية ومخزنا لعلفهم وللعتاد العسكري سنوات طويلة، ثم أجره أحد اليهود الذي يدعى "بن عدى" واتخذه متجرا

---

[3] - الآغا بن عودة المزاري: **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، د.ط، دار البصائر، الجزائر، ص284. يُنظر كذلك:

- مسلم بن عبد القادر الوهراني: **تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر**، تحقيق رابح بو نار، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 21.

[4] - ابن سحنون أحمد الراشدي: **المصدر السابق**، ص.127

[5] - للعلم أن أهل المنطقة لا يعرفون أي معلومة عن هذا الولي، والمرجح أن الاحتلال الفرنسي عمد إلى إطلاق هذه التسمية محاولا طمس معالم واسم هذا الجامع المزدوج الشرف، والذي تعاقب عليه شريفين لمجاهدين، الأول هو الباي محمد الكبير فاتح وهران ومخلصها من الاستعمار الاسباني، والثاني هو الأمير عبد القادر بطل المقاومة الشعبية بالغرب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

لبيع الحبوب. وقد حاول تحويله إلى دير لليهود لكن أهالي المنطقة استعادوه بدعم من الحاكم العام للمدينة، وفتحوه لأداء العبادات في حدود عام 1910 تقريبا، وحروره من الأسر المسيحي، وإذلال اليهود وإحباط مخططاتهم الخبيثة، فعاد ليؤدي رسالته الدينية والتربوية والثقافية التي أسس لها ومن أجلها، عاد المسلمون لأداء فروضهم وواجباتهم الدينية فيه، كما كانوا من قبل.[6]

شُيد جامع عين البيضاء في أسفل مدينة معسكر على الناحية الشرقية منها، على أرض مائلة إلى الشرق، وذلك بعد أن قام الباي محمد بن عثمان الكبير بشراء أرضه من أربابها بأغلى ثمن وهم مستبشرون ببيعها، فجاء من المباني الرائقة والآثار الفائقة، التي لم يَبْن أمير مثلها اتقانا وحسنا، وبنا مدرسة كبيرة وألحقها به وحبس عليه خزانة كُتُب، زيادة على مخبزة ودكاكين وأجنة وكل مرافق الحياة، التي كانت مجعولة لاحتياج الطلبة والأساتذة وجميع موظفي المسجد والمدرسة.

يعتبر هذا الجامع أحد أهم الجوامع التي ما تزال تحتفظ بجمالها وأصالتها بالجزائر منذ العهد العثماني، ويظهر في شكله العام مربعا، وبيت الصلاة مربَعة الشكل يتوسطها فضاء مركزي، تعلوه قبة مركزية مضلعة. (انظر الشكل رقم 02 والصورة رقم02)

3- جامع الكرط[7]:

تاريخ التأسيس الجامع:

موقعه وتاريخه: يقع هذا الجامع في الجهة الغربية من قرية الكرط، ملتصقا بضريح سيدي يوسف بن عيسى. أما عن تاريخ بنائه فهو مجهول لانعدام أية وثائق تاريخية أو أدلة أثرية تتحدث عن تاريخ تأسيسه. (انظر الصورة رقم03)

ويرجح أنه أسس خلال حكم الدولة الزيانية، على عهد يحي بن يغمراسن، خلال القرن 8هـ وينسب تأسيسه إلى الشيخ سيدي يوسف بن عيسى المدفون بجواره، ويسمي حاليا بـ: "جامع عبد الله بن مسعود".

نبذة تاريخية عن المؤسس:

يَرجع أهل منطقة الكرط بناء هذا الجامع إلى الولي الصالح سيدي يوسف بن عيسى الشريف العرهبي[8]، إلا أننا لم نقف على أية وثيقة تثبت ذلك بصفة قطعية أو تنفيه. وحتى ما ورد عن ابن الحاج

---

[6] - بوعزيز يحيى: **المساجد العتيقة...المرجع السابق**، ص ص216-217.

[7] - **الكرط**: معسكر القديمة أو جبل الذهب، قرية تقع على بُعد 2 كيلومتر من مدينة معسكر، من أقدم المناطق التي عمَرها الإنسان، بها مقبرة شهيرة تضم عددا من العلماء والأولياء الصالحين، وزاوية تعود إلى القرن 8هـ. وحسب الروايات فالكرك كلمة مشتقة من كلمة أُكرط البربرية، معناها: إشرب، فيحكى أن الولي الصالح سيدي يوسف لما نزل بها رأى ذئبا عطشان، فضرب بعصاه الأرض فتفجرت منها عين، وقال له أُكرك (إشرب). بقي الاحتلال الإسباني بها حوالي ربع القرن، وسمّوها الكرطي أو كرطوش (معسكر)، لأنها كانت محاطة بالأسوار والأبراج. للمزيد من المعلومات يُنظر:

- المشرفي الزاوي الجيلالي بن محمد: "نافذة على بعض علماء معسكر (رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي)"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، ع: 2، 3، منشورات دار الأديب للنشر والتوزيع، ص 97.

[8] – مقابلة مع درار نعوم، باحث في تراث منطقة الكرط، يوم الأربعاء 15 جانفي 2012م.

البيدري في مؤلفه "**تنوير قلوب أهل التقوى والمعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف**" بأن "سيدي يوسف بن عيسى مُختط زاوية الكرط وأُهله ومبتدعه، ومُبتدعيه"[9].لا يؤكد شيئا مما يذهب إليه أهل المنطقة، بل يثير الشكوك حول ذلك فقط.

وعليه وفي ظل غياب الأدلة التاريخية القطعية، فإن سيدي يوسف بن عيسى سوف يظل باني هذا الجامع ومؤسسه.

قدم هذا الولِي من فجيج[10]، تحديدا من واد اغير، إذ تجتمع فيه أشراف المشارف، وهم ينسبون إلى "سيدي مشرف المرتبط نسبه بإدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم" [11].

استقر سيدي يوسف بمنطقة الكرط، وهناك أقام زاويته المعروفة، وأسس إلى جانبها الجامع الذي أضحى قبلة علمية للإرشاد والتوجيه، تشد إليه الرِحال من مختلف مناطق المغرب الأوسط. وقد توارث عنه أبناؤه وأحفاده العلم، واهتموا بأمر التعليم بعده، فتخرَج على أيديهم الكثير من العلماء نذكر من بينهم، مصطفى الرماصي...وغيرهم.

عاش سيدي يوسف بن عيسى بقرية الكرط إلى أن وافته المنية، فدفن بجامعها العتيق، وقبره بها إلى يومنا هذا مشهور ومزار متبرك به.

وخلال العهد العثماني، قام الباي محمد بن عثمان الكبير بترميمه، في أواخر القرن 18م، وهو ما يزال على ذلك البناء إلى يومنا هذا.

شُيِّد هذا الجامع على أرض مائلة من الغرب إلى الشرق، وهو يظهر في شكله العام مربعا بسيطا، تُقدر مساحته الإجمالية بـ: 22.44م^2، حيث أُدخلت عليه عدة توسيعات في الفترة المعاصرة من الجهة الغربة والجنوبية، دون أن تمس بيت الصلاة الأصلي. لكن تبين لنا من خلال تخطيطه المعماري العام أنه تعرض إلى عدة تجديدات وتغييرات كثيرة.

4- المدرسة المحمدية:

تعتبر المدرسة المحمدية بأم عسكر من بين المدارس المشهورة بالجزائر خلال العهد العثماني، فهي تنسب إلى بانيها أبي الفتوحات المنصور بالله محمد بن عثمان فاتح وهران[12]، الذي شيّدها إلى جانب الجامع الأعظم المسمى بجامع العين البيضاء، وذلك تماشيا مع التقاليد الإسلامية، كما هو الحال

---

[9] - البيدري ابن الحاج: **تنوير قلوب أهل التقوى والمعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف**، مخطوط بمكتبة درار نعوم، -الكرط-، معسكر، الورقة 3.

[10] - **فجيج**: (فكيك) تقع بالجهة الشرقية، الجهة الثالثة من حيث التقسيم الإداري للمغرب، الذي يشمل 16 جهة. وتعد مدينة بوعرفة عاصمة لإقليم فجيج: ينظر: الموقع الإلكتروني: www.zousfana.com. يوم : 18/ 05/ 2012، على الساعة: 20:22.

[11] - بن بكار بلهاشمي: **كتاب مجموع الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والأدب**، د.ط، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961، ص 387.

[12] - أبي رأس الناصر: **الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب**، مخطوط بخزانة البشير محمودي بالبرج، معسكر، ص188.

بالنسبة لجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس، وكان الفراغ من بنائها سنة 1196هـ، حيث عين الباي أعظم عالم كمدير لها، وهو الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي[13]، الذي اشتهر بتنظيم رباط وهران[14].

اعتبرت هذه المدرسة من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد الكبير بالغرب الجزائري، لِمَا كان لها من صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، وصارت أكبر معهد علمي، يضم أساتذة أكفاء متفرغين لمهمة التعليم لا غير[15]، مثل: "محمد مصطفى بن زرفة الدحاوي" و"الطاهر بن حواء" وغيرهم من العلماء الأجلاء، فكانوا بمثابة الموجه للتلميذ، والمرشد للمجتمع، والأستاذ والإمام أحيانا، والمفتي أحيانا أخرى، والقاضي في غالب الأمر[16]، وتمكن محمد الكبير بفضل تلك المدرسة أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة علمية كبيرة، بدليل ما قاله أبو رأس الناصر بشأنها: " إن المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلمه كالمدرسة البوعنانية بفاس ومدرسة ابني الإمام بتلمسان والمدرسة المستنصرية والباشية بتونس والقشاشية في الجزائر[17] ". وقد وصفها الكثير من الشعراء منهم أبو العباس أحمد المقري القرومي.

ويصفها ابن سحنون الراشدي قائلا: " كاد العلم أن يتفجر من جوانبها"[18].

أما المواد المدروسة فلا تقل عن المواد التي كانت تدرس بأشهر الجامعات الإسلامية، حيث يطغى عليها الجانب الديني واللغوي، وبعض كتب التاريخ والسيرة[19] وغيرها من العلوم النقلية[20].

وحتى لا نغفل عن دور شيوخ وطلاب المدرسة المحمدية في العهد العثماني، فإنهم شاركوا في تحرير وهران سنة 1792م، فقد كان مديرها محمد بن عبد الله الجيلالي رئيسا لرباط "ايفري" والطاهر بن حواء نائبه وبن زرفة الدحاوي مقيد حوادث الفتح، إلى جانب اعتبار طلاب المدرسة المحمدية من بين

---

[13] - **محمد بن عبد الله الجيلالي**: هو محمد بن عبد الله بن الموفق بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن محمد المشهور بأبي جلال، أحد أحفاد الولي الصالح محمد بوجلال، يرجع نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد في معسكر، ويعد من أبرز علماء الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر الميلاديين، تلقى علمه على يد علماء فاس، ورجع من هناك غزير العلم نفع به طلابه المتعطشين. وذهب إلى الحج حيث التقى بعلماء المغرب والمشرق، من جملة من تخرج على يده العالم محمد بن حواء بن يخلف، والعالم الكبير أحمد بن سحنون الراشدي، لمزيد من المعلومات يُنظر:- بن جلول أحمد البدوي، **رسالة النسب**، د.ط، الجزائر، 1990، ص33.

[14] - بوعبدلي المهدي: "مراكز الثقافة وخزائن الكتب"، مجلة الأصالة، ع 11، 1973، ص94.

[15] - فركوس صالح: "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية"، مجلة الثقافة، العدد71، 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص17.

[16] - عميراوي احميدة: **من تاريخ الجزائر الحديث**، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ت، ص207.

[17] أبي رأس الناصر: **المصدر السابق**، ص188.

[18] - ابن سحنون أحمد الراشدي، **المصدر السابق**: ص127.

[19] - جاكر لحسن: **نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931- 1956**، د.ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص30.

[20] - حمدادو بن عمر: **أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية 1155- 1238هـ/ 1737- 1823م**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، وهران، 2002- 2003، ص 43.

الأوائل المستجيبين للمرابطة حول وهران، وتشكيلهم للوفد الذي امتهن مهمة دعوة الطلبة إليها من أنحاء بايلك الغرب[21].

وهكذا يتبين أن المدرسة المحمدية هي من المعاهد العليا، التي عرفتها الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني مثل: المدرسة الكتانية التي أنشأها صالح باي في قسنطينة والمدرسة القشاشية في الجزائر العاصمة[22]، غير أن سمعتها ومكانتها العلمية فاقت المدرستين الأخيرتين، لأهميتها الوظيفية في تلبية حاجيات السلطة العثمانية من الإطارات والكفاءات العلمية المتخصصة، ولاشك أن المدرسة المحمدية بحاضرة معسكر، قد فقدت أهميتها ولم يبزغ نجمها في التاريخ مع انتقال عاصمة بايلك الغرب من معسكر إلى وهران سنة1792م، وهجرة مدرسيها وفقدان الاهتمام بالمدرسة أيضا، وبالتالي لم تتوفر معلومات عن مصير هذه المدرسة وتاريخ غلقها، كما لم يحص عدد العلماء المتخرجين منها أو حتى المشاهير منهم[23].

5- زاوية أبي راس الناصر:

الموقع: تقع زاوية أبي راس الناصري في حي باب علي العتيق، وبالضبط في شارع الأمير عبد القادر من الجنوب.

نبذة تاريخية عن الزاوية:

تأسست هذه الزاوية أيام حكم الباي المشهور محمد الكبير، غير أنها لم تنل الشهرة كباقي المنشأت الدينية والتعليمية الأخرى، وبقيت على هذه الحالة إلى غاية حكم الباي مصطفى العجمي[*] في ولايته الثانية، الذي أعاد بناء وتجديد هذه الزاوية ووسعها، حسب ما ذكره شيخ الزاوية "أبو راس" في كتابه "فتح الإله" في سنة1222هـ / 1808م، بالإضافة إلى أن الباي محمد بن عثمان الملقب بـ "بوكابوس"[*] قام بتبييضها وترميمها في سنة 1227هـ الموافق لـ1812م. ولما توفي العلامة في سنة 1238هـ حوالي1823م دفن بهذه الزاوية، وأصبح ضريحه علما على المكان. وهذه الزاوية عبارة عن مجمع

---

[21] - بوعبدلي المهدي: "الرباط والفداء في وهران"، مجلة الأصالة، ع13، 1973، ص27، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: سعد الله أبو القاسم: **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص189.

[22] - سعد الله أبو القاسم: **المرجع السابق**، ص281.

[23] - بلبروات بن عتو: **الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري**، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران،2001- 2002، ص222.

[*]- **الباي مصطفى العجمي:** هو الباي مصطفى بن عبد الله العجمي، رابع بايات وهران، تولى أمر البايلك مرتين الأولى ما بين 1215- 1220 هـ /1800- 1805م، والثانية في سنة 1222هـ / 1808م حكم فيها مدة تسعة أشهر، عرفت فترته بالاضطرابات وظهور ثورة درقاوة. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- الآغا بن عودة المزاري، **المصدر السابق، ج1**، ص329.

[*]- **الباي محمد بن عثمان:** تولي أمر البايلك في آخر سنة 1222هـ/ 1808م. لمزيد من المعلومات يُنظر: - الآغا بن عودة المزاري، **المصدر السابق، ج1**، ص329.

معماري يضم قاعة التدريس، ودار الشيخ وضريحه، وقد تخرج منها العديد من الطلبة والعلماء، خاصة في عهد العلامة أبي راس الناصر. (انظر الصورة رقم05)

6- زاوية القيطنة:

موقعها وتاريخها: تقع هذه الزاوية في قرية صغيرة على يمين وادي الحمَّام بين منطقتي بوحنيفية وحسين في منطقة غريس، على بعد حوالي عشرون كيلومترا من مدينة معسكر[24] على هضبة تحاذي جبل اسطمبول، وهي عبارة عن منشأة معمارية بسيطة في مظهرها العام، أدخلت عليها عدة تغييرات في الفترة المعاصرة. (انظر الصورة رقم04)

تعتبر زاوية القيطنة[25] القادرية، التي أسسها الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي بقرية القيطنة خلال العهد العثماني من المراكز التعليمية التي كان يشد الرحال إليها لطلب العلم ، ويذكر محمد بن عبد القادر الجزائري في كتابه "تحفة الزائر" أن تأسيس المعهد يعود إلى سنة 1206هـ الموافق لـ1792م. أي في بداية القرن الثالث عشر هجري، إلاّ أنّ الأمير عبد القادر ذكر في مذكراته التي كتبها في قصر أمبواز، أن زاوية القيطنة أسست أواخر القرن الثاني عشر هجري[26]. ويبدو أن سنة 1206هـ هي تاريخ تجديد المعهد وليس تاريخ بناءه، لأن الباي محمد بن عثمان الكبير الذي كان أحد تلامذة الشيخ مصطفى بن المختار، اشتهر في تلك الفترة بتجديد وبناء المساجد[27]، وقد عرفت إشعاعا دينيا وثقافيا معتبرا، وهذا ما يؤكده أبي رأس الناصري حين زار الزاوية في عهد مؤسسها إذ قال: "وقد ذهبت للقيطنة ذات يوم ووقفت بباب الجامع. فإذا هو نوالة كبيرة بمحرابها، وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي، فرأيت مصطفى بن المختار أحد تلامذة الشيخ المذكور يدرس في الأول من المختصر-خليل- ثم رجعت في ساعة فرأيت الشيخ يدرس الثاني ولم يبال في أحد من الطلبة كأني نسيا منسيا".[28]

---

[24] - شرشل شارلز هنري: **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر،د.ت، ص61، يُنظر كذلك: بوعزيز يحي: **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، سيرته الذاتية وجهاده**، ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، 2002، ص39.

[25] - **القيطنة**: مشتقة من القطن ضد الضعن، وهي موضع القطون، أي الإقامة، وهي قرية تتربع على سهل واسع وفي انعطاف مجرى النهر، لمزيد من المعلومات يُنظر كل من: الأمير عبد القادر: **مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1844**، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، طبعة خاصة، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص48، وكذلك: محمصاجي قدور: **شباب الأمير عبد القادر (أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة)**، ترجمة مختار محمصاجي، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص39.

[26] - جاكر لحسن:**المرجع السابق**،ص227.

[27] - بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر**، ج1، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2009، ص146.

[28] - الناصري أبي رأس: **فتح الإله ومنتّه في التحدث بفضل ربي ونعمته، حياة أبي رأس الذاتية والعلمية**، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص43.

كانت زاوية القيطنة محطة للزائرين في حياة الشيخ مصطفى بن المختار، واستمرت كذلك إلى غاية ابنه محي الدين، بل ازداد توافد الزوار من ذي قبل حتى بلغ أكثر من والده، حتى أنه جاءها المريدون من جهة مراكش وبلاد السوس وشنقيط، ومن نواحي افريقية، بل حتى من الإسكندرية[29]، وأما طلبة القرآن الذين قرؤوا القرآن والعلم بها، كان لا يخلو موضعه من خمسمائة إلى ستمائة طالب، بحيث لا يسمع المار بها إلا دوي القراءة في كل وقت، مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها المعد للصلاة وكانت فيه نحو السبعة مجالس للتدريس.[30]

شهدت هذه الزاوية تطورا كبيرا وأصبحت تلقب بمعهد القيطنة، وهذا نظرا لتوافد الطلبة والعلماء عليها كما ذكرنا سابقا وعُيّن عبد القادر المشرفي مديرا لهذا المعهد[31]، وعليه فإن معهد القيطنة صار من أهم المؤسسات التعليمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، بالنظر إلى مكانة مديره العلمية عبد القادر المشرفي، الذي كان يعد من كبار علماء عصره والطلبة الذين تخرجوا منه[32] صاروا من كبار العلماء، حيث ذاع صيتهم في الجزائر والمشرق العربي، نذكر منهم الأمير عبد القادر (1808م-1883م)، محمد مرتضى الحسن الجزائري (1827م-1901م)، محي الدين بن الأمير عبد القادر(1843م-1918م)، أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسيني (1833م- 1902م)[33]، والواقع أن شهرة المعهد لم تكن ناجمة عن كفاءة مدرسيه فقط، وإنما إلى تعدد العلوم والفنون، التي تدرس فيها.

7- زاوية سيدي بوسكرين:

موقعها وتاريخها:

تقع زاوية سيدي بوسكرين برحبة باب علي، وبالضبط في حي سيدي بوسكرين. وهي عبارة عن مجمع معماري يضم مسجدا وضريحا وعدة مرافق، وتشغل مساحة واسعة مقارنة بزوايا المنطقة في الفترة العثمانية. (انظر الصورة رقم06)

يكتنف تاريخ هذه الزاوية الكثير من الغموض، وذلك لقلة المصادر التي تتحدث عنها، باستثناء رسالة مخطوطة عثرنا عليها توضح أن الزاوية كانت قائمة أواخر القرن التاسع هجري، وبالتحديد سنة 893 هـ، غير أن تاريخ تأسيسها مجهول.

---

[29] - الجزائري محمد ابن عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق محمود حقي، ج1، ط1، المطبعة التجارية عزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903م، ص48.

[30] - **نفسه:** ص48.

[31] - بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا...المرجع السابق**، ص143.

[32] - جاكر لحسن: **المرجع السابق**، ص27.

[33] - هلال عمار: **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هجري)**، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995، ص ص33- 336.

توضح لنا هذه الرسالة أن هذه الزاوية كانت عامرة بالطلبة، حتى أنه لا يكاد يمر زائر بمعسكر إلا وسمع دوي وأصوات الطلبة، فيقول عبد السلام الإدريسي في ذلك:"...والذي نوصيكم أيها الطلبة به هو الجد والاجتهاد في القراءة، وتقوى الله والعمل بطاعته لأن من يدخل معسكر يشاهد ويسمع أصواتكم وأنتم تتلون كتاب الله والاستعانة به والتوكل عليه".[34]

والجدير بالذكر هو أن هذه الزاوية قد ذاع صيتها في العالم الإسلامي، لِما تميزت به من مكانة علمية كبيرة، وذلك لتوفر عاملين أساسيين هما مجموعة العلماء القائمين عليها، وهم أبي زكرياء اليعقوبي وإخوته ابراهيم، محمد ويعقوب، ولوفرة المال الذي يَسَّر على الطلبة أمور الدراسة والمعيشة. وأصبح لها علاقات علمية مع زوايا المغرب الإسلامي وعلماءه خاصة علماء المغرب الأقصى، الذين أجادوا بعلم علماء هذه الزاوية وطلبتها، وبانتفاعهم بأقوالهم وأفعالهم، وذلك من خلال المكاتبات التي كانت تتم بينهم.

فهي كانت بحق منارة علمية، أضفت على معسكر نورا طمس ظلمات الجهل بها. وككل زاوية علمية فإن مواد التدريس بها كانت دون شك تنحصر في العلوم الدينية، إضافة إلى علمي الفلك والرياضيات.

نبذة تاريخية عن مؤسس الزاوية: أسست زاوية سيدي بوسكرين على يد عالم جليل، وهذا ما تبين لنا من خلال الدراسة التاريخية للزاوية. فكان يحي بن زكرياء بن يعقوب المكنى أبو زكري مؤسس هذه الزاوية، لُقِب بسيدي بوسكرين في عهد الاحتلال الفرنسي، وذلك لتراجع اللغة العربية وعدم النطق الصحيح لها[35]. عاش ما بين القرن التاسع والعاشر الهجريين، كان عالما عاملا زاهدا كاملا، أخذ العلم عن معاصريه من أبناء الإمام التلمسانيين وغيرهم، وهو من أولاد يعقوب بن محمد أمغار من ذرية سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. قبره بمدينة معسكر معروف، وبإجابة الدعاء عنده موصوف[36].

عند رجوعه من تلمسان توجه إلى الكرط للرباط وممارسة التعليم، وبدخول الإسبان إلى وهران دخل مدينة معسكر واتخذ له زاوية ومسجدا لتعليم القرآن. وإذا قلنا أنه أنجب الصلحاء فمن ذلك: سيدي علي بن يحي، سيدي محمد بن يحي، سيدي أحمد بن يحي.

استطاع بعلمه الغزير وزاويته التي ذاع صيتها في المغرب الإسلامي، أن يكون لنفسه علاقات مع علماء الجزائر منهم سيدي الحسني بوهران، وعلماء المغرب أيضا. استطاع أن ينال لديهم حظوة كبيرة

---

[34] - رسالة مخطوطة، نسخة موجودة بمكتبة زاوية سيدي بوسكرين.

[35] - مقابلة مع القائم على الزاوية السيد بن حليمة حسين يوم، 2012/05/22، على الساعة 11:00 صباحا.

[36] - بن بكار بلهاشمي: **المصدر السابق**، ص 380. يُنظر كذلك:

- جلول جيلالي: **معسكر رجال وتاريخ**، د.ط، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.ت، ص 90.

لما تمتع به من معرفة واسعة حتى قال عنه مشايخ وزان:"...نحمد الله الذي أرانا هذا البلد، رجلا سخر الله له الريح"[37]، أي أنه استطاع بعلمه أن يهون من الصعاب ما فاقت قوتها قوة الريح.

نماذج من علماء معسكر خلال العهد العثماني:

أدى علماء ومثقفو هذه المنطقة دورا رائدا في النهضة الفكرية والثقافية، وحركة التأليف والقضاء والتدريس، وفي حركة الجهاد والمقاومة ضد النصارى الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير، وكل المغيرين المعتدين، وما يلفت النظر أنّ موضوع الجهاد ضد النصارى الاسبان كان يمثل الرقم واحد لأغلب علماء ومثقفي هذه المنطقة، والاهتمام الأول لهم، ولهذا شاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد أفرادا وجماعات، وخاضوا المعارك، وألفوا الكتب ونظموا الأشعار لإلهاب حماس الناس وتحفيزهم للمقاومة والاستبسال والاستشهاد، وكانوا من أكبر المحركين والمشجعين حتى للبايات والقواد والبشوات، ومن أشهرهم نذكر:

1- **الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي:** كان ملازما للباي مصطفى بن يوسف بوشلاغم، وحضر معه الهجوم الكاسح على وهران وتحريرها الأول عام 1119هـ/ 1708م، واشترك معه في كل خطوات الفتح، وسجل الأحداث نظما، وشرح ذلك النظم نثرا في كتاب سماه "**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**"[38] ذكر فيه بالتفصيل قصة الفتح، وتاريخ الباي وأسلافه من قبله، وعمران مدينة معسكر، ودور العلماء في الجهاد ورباطهم بإيفري، وأورد معلومات كثيرة سياسية وعسكرية وثقافية واقتصادية وأدبية وتاريخية وغيرها[39].

2- **الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي:** كان يدعى شيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ في قرية الكرط قرب معسكر، وتثقف في المنطقة على علماء عصره، ثم عُين مدرسا بمعهد الشيخ محيي الدين في زاوية القيطنة مدة من الزمن، وأخيرا أسس زاوية في مسقط رأسه، كما شارك في مقاومة ومحاربة النصارى الاسبان بوهران، وألف رسالة في التنديد والتشهير بالقبائل التي كانت تتعاون مع الاسبان[40]، سماها "**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر**"، وقد اشترك بنفسه في الهجوم على وهران والتحرير الأول لها عام 1178هـ/ 1708م، بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، وتوفي في مسقط رأسه عام 1192هـ/ 1778م.

---

[37] - رسالة مخطوطة، نسخة موجودة بمكتبة زاوية سيدي بوسكرين.

[38] - ابن سحنون أحمد الراشدي: **الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني**، تحقيق المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، د. م ، د. ط ، 1973.

[39] - بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا ...المرجع السابق**، ص.150

[40] - **نفسه**: ص ص 139- .142

3- **الشيخ مصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي:** من شرفاء غريس، وكان كاتبا للباي محمد بن عثمان الكبير الكردي، ومساعدا لرئيس رباط إيفري قرب وهران، الذي كان مخصصا لمرابطة العلماء والفقهاء به، من أجل محاصرة النصارى الاسبان بها، والمشاركة في الهجوم عليهم، وقد شارك بنفسه في الهجوم الشامل عليها وتحريرها نهائيا، فكلفه الباي بجمع الحوادث وتسجيلها أولا بأول، فسجلها وجمعها في كتاب سماه "**الرحلة القمرية في السيرة النبوية**"[41]، وبعد تحرير المدينة عُيّن قاضيا بها حتى توفي بمرض الطاعون عام 1215هـ/ 1800- 1801م، وكان من ضمن تلاميذه أبو راس الناصر[42].

4- **أبو العباس أحمد بن هطال التلمساني:** كان كاتبا ومستشارا للباي محمد الكبير ومبعوثا له في المهمات الخارجية، كما شغل نفس المنصب بعد وفاة الباي وتولي ابنه عثمان باي، ثم أصبح بعد ذلك كاتبا للباي مصطفى بن عبد الله العجمي. توفي بن هطال في معركة وقعت بين الأتراك وبن الشريف الدرقاوي وأنصاره وذلك في أوائل سنة 1219هـ، وقد ترك لنا مخطوطة مهمة سماها "**رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**"، وهي تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية، لا يستغني عنها أي دارس للجزائر خلال العهد العثماني[43].

5- **الشيخ أحمد بن محمد بن عبد القادر الراشدي:** المعروف **بأبي راس الناصر**[44] ولد عام 1150هـ/ 1737م، بجبل كرسوط في قلعة بني راشد شرقي مدينة معسكر، وتنقل في صغره بين متيجة وتنس والمغرب الأقصى، وحفظ القرآن الكريم ودرس على علماء عصره وعلى رأسهم الشيخ عبد القادر المشرفي، ثم تصدى للتدريس والإفتاء والإمامة والخطابة والقضاء بمدينة معسكر قرابة 36 عاما، وحج مرتين واشتهر بالحفَّاظ لغزارة علمه، وكتب وألف في مختلف العلوم، وخلّف وراءه ما يقرب من 90 مخطوطة، وقيل 136 بين قصيرة وطويلة، كان من بينها مؤلفات في التاريخ، نخص بالذكر منها: "**عجائب الأخبار ولطائف الأسفار**" وكذلك " **زهرة الشماريخ في علم التاريخ** " وأيضا " **الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب**" بالإضافة إلى "**الرحلة**". وهي كلها مؤلفات مهمة تتحدث عن أهم الأحداث والوقائع التي وقعت في الجزائر خلال العهد العثماني. لقد توفي هذا العلامة يوم 15 شعبان 1238هـ الموافق لـ 17 أبريل 1823م[45].

---

41 - الدحاوي مصطفى بن زرفة: **الرحلة القمرية**، تحقيق مختار حساني، د.ط، مخبر المخطوطات، الجزائر، 2003.

42 - بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا ...المرجع السابق**، ص.145

43 - للمزيد من المعلومات يُنظر: ابن هطال أحمد التلمساني: **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص.10

44 - لقد ألف أبي راس الناصر ترجمة عن حياته في مؤلف سماه: **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"**.

45 - يحي بوعزيز: **موضوعات وقضايا...، المرجع السابق**، ص ص145- 146.

بالإضافة إلى كل هؤلاء العلماء المذكورين، نجد هناك أعداد أخرى ساهمت في كتابة التاريخ الوطني بكل أحداثه نذكر منهم الشيخ محمد بن يوسف الزياني، الذي ألف كتابا حمل عنوان "**دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**"، تحدث فيه عن تاريخ هذه المدينة وتاريخ علمائها وأوليائها. وكذلك الشيخ الآغا بن عودة المزاري، الذي ترك لنا مؤلفا لا يقل أهمية عن سابقه، والذي حمل عنوان "**طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**"[46]، وهو يقدم لنا معلومات تاريخية مهمة جدا عن بايات بايلك الغرب وأعمالهم المختلفة، وأهم الأحداث التي وقعت في الجزائر خلال العهد العثماني.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذا البحث أن منطقة معسكر خلال العهد العثماني، كانت من أهم المدن الجزائرية التي حظيت باهتمام كبير في ميدان البناء والتشييد، خاصة ما تعلق منها بالمنشآت الدينية والتعليمية، حيث تسابق وتنافس بايات بايلك الغرب في مختلف الفترات التاريخية على ذلك، سواء تعلق هذا العمل بتكريم عالم من العلماء أو تخليد أسمائهم، كوقف يستفيد منه أهل البلد، وقد شجعت هذه الأعمال المعمارية بمختلف أنواعها على نشر التعليم، وتكوين أجيال مثقفين، تخرج منهم نخبة من العلماء، ساهموا في الحركة والنهضة العلمية والثقافية في الجزائر، وكذلك في محاربة الاحتلال الاسباني، الذي طرد بفضل العلماء وطلبة المساجد والمدارس والزوايا.

كما لاحظنا أيضا مدى مساهمة بعض البايات في تشجيع الحركة العلمية في المنطقة من خلال ترميم وتجديد المؤسسات التي تعرضت للإهمال والتلف، وإعادة أوقافها التي سلبت منها، وقد كان على رأسهم الباي محمد الكبير، وهذا دون نسيان مدى تعلق أهل معسكر بالعلم والتشجيع على طلبه، بالاهتمام بالطلبة وإكرام العلماء والمدرسين، الذين تركوا لنا زخما من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى تطور حركة التدوين خلال العهد العثماني، خاصة ما تعلق منها بالتاريخ والجانب الحضاري للجزائر، مما سهّل ذلك معرفة أهم الأحداث التاريخية التي عرفتها الجزائر خلال هذه الفترة.

---

[46] - الآغا بن عودة المزاري: **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، د.ط، دار البصائر، الجزائر.

الملاحق:

صورة قديمة للجامع الكبير
عن أرشيف مكتبة البلدية

صورة حديثة للجامع الكبير

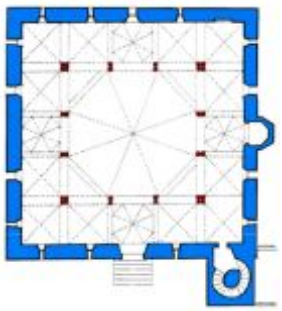

مخطط جامع العين البيضاء- عن خيرة بن بلة

جامع العين البيضاء خلال فترة الاحتلال الفرنسي

جامع الكرط

زاوية القيطنة

زاوية أبي راس الناصر

زاوية سيدي بوسكرين